العدد السابع والعشرون

المحور : التباس المفاهيم واختلالها

المفاهيم المتداولة للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين

مصطفى بوهندي *

يصعب كثيرا إقامة حوار هادئ بين المسيحيين والمسلمين؛ لأسباب تاريخية عديدة أسست لقرون من الخلاف والصراع وعدم التفاهم، غير أن الضرورة الملحة اليوم تقتضي البحث عن الأرضية المشتركة للتعايش والكلمة السواء والسلام والتعاون، ولتأسيس علاقة جديدة بعيدة عن كل أشكال الصراع المؤلم الفظيع في الماضي والحاضر، والذي لم ينتج إلاَّ المآسي والعذاب والكراهية، والذي كان بكل تأكيد خروجا عن روح الدين واستجابة لنزغ الشيطان.

إنه امتحان صعب ينبغي للمسيحيين والمسلمين أن يجتازوه؛ ليقيموا ما أنزل الله في إنجيلهم وقرآنهم: إنجيل المحبة وقرآن الرحمة، ويقوموا بما أوجب الله عليهم تجاه الناس، بغض النظر عن سلوك أولئك الناس تجاههم، وإلا فأين هي (التي هي أحسن) إن لم تكن (السيئة) من المخالف، كما يقول القرآن، وأي فضل لكم إن سلمتم على إخوتكم فقط، وأي أجر لكم إن أحببتم الذين يحبونكم فقط؛ كما يقول الإنجيل، وبذلك فقط تزول العداوة وينتشر الولاء الحميمي بين المختلفين.

جوانب إيجابية:

إن اطِّلاع المسلمين على كتب النصارى بروح مفتوحة متواضعة، تبحث عن الحق الموجود فيها، واطِّلاع النصارى على كتب المسلمين بالروح نفسها، سيذلّل كثيراً من العقبات أمام التقارب المسيحي الإسلامي، وسيجعل الحوار بين المسلمين والمسيحيين مثمرا، ويكفي أن يركز المسلمون في دراستهم للإنجيل على الجوانب التي يعتبرونها إيجابية؛ ليكتشفوا عالَماً واسعاً من الهدى والنور والأخلاق والرحمة، الأمر نفسه نقوله لإخواننا المسيحيين: إن تركيزهم على الشبهات المثارة يحرمهم من رؤية الأنوار الساطعة التي يسطع بها القرآن الكريم، وهذا لا يعني أبداً ترك الروح النقدية في المدارسة، والتي تستطيع أن تفرق بين ما أنزله الله، وبين ما فهمه الناس وتأولوه وتدخلوا فيه، وهو مجال واسع للمباحثة بين المسلمين والمسيحيين؛ غير أننا اليوم نحتاج بشكل استعجالي إلى فتح أعيننا على الجوانب الإيجابية التي عند الفريقين؛ لتجسير الهوة السحيقة بينهما.

ولهذا فقد سمحت لنفسي بأن أتعامل مع النصوص الإنجيلية والقرآنية بشكل مباشر، أبحث فيهما عن النور والهدى الذي نحتاجه في حوارنا المسيحي الإسلامي، وقد وجدت فيهما نورا مبينا أعرضه عليكم.

رسالة واحدة:

لم تكن دعوة السيد المسيح u إلاَّ بيانا لحقيقة الرسالة الربانية الواحدة التي جاء بها جميع الأنبياء، وكان عيسى ابن مريم واحدا من رسلها المصطفين: (لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أو الأنبياء. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّل)(1). لقد دعا السيد المسيح أتباعه ليكونوا أبرارا، وليزيد برهم على الكتبة والفريسيين، وبذلك فقط يدخلون إلى الملكوت وينالون الأجر العظيم في السماوات.

ولم يكن محمد e بِدَعا من الرسل، ولا كانت رسالته بدعاً من الرسالات، وإنما كان واحداً من الأنبياء المصطفين الأخيار، الذين يُصدّق بعضهم بعضا، ويؤمن بعضهم ببعض، ويُبلغون الرسالة نفسها على اختلاف الزمان والمكان والشعوب والأجناس، قال -تعالى-: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ)(2).

ومن ثم فإن محمدا عليه الصلاة والسلام -مثل السيد المسيح في رسالته- ما جاء لينقض بل ليكمل، وما جاء لينسخ بل ليُصدّق ويُؤمّن، وهو ما نستشفه من العديد من نصوص القرآن المتحدثة عن تصديقه لما سبقه من الكتاب والهيمنة عليه. غير أن لأغلب أهل الكتاب وكذلك لكثير من المسلمين في هذه المسألة تفسيراتٍ متعددةً انزاحت بالكلم عن مواضعه، وحمّلته مفاهيم نعدّها مختلة ومضطربة، ونأمل في مدارستنا هذه أن نردها عن انزياحها إلى سياقاتها الصحيحة، مع التنبيه إلى المؤثرات البشرية والتاريخية والمذهبية عليها.

لقد طُلب من رسول الله e ومن كل المؤمنين بالكتاب، أن يهتموا بأنفسهم، ويستقيموا كما أمُروا، ويقولوا: إنهم يؤمنون بما أنزل الله من كتاب، ولا يحكمون على غيرهم بما ليس من شأنهم، فالله رب الجميع، ولكل منهم عمله، ولا حجة لأحد على أحد، والمحاسب هو الله عندما يعرض الناس عليه(3).

الأمر نفسه كان السيد المسيح يؤكد عليه، ويعرضه على أتباعه من خلال مواعظ وأمثال، ومن ذلك مثل الحنطة والزوان، حيث ينبغي تركهما إلى وقت الحصاد، وحينئذ سيحرق الزوان وستؤخذ الحنطة إلى مخازن صاحب الزرع(4). إن الذي يهمنا من هذا المثل في هذا المقام أن الحكم على الآخرين وإدانتهم، ليس لأحد من الناس في هذه الدنيا، ولا لطائفة من طوائفهم، وإنما هو إلى الله في يوم الميعاد، وهنالك ينال كل واحد أجره، ولقد أخطأ كثير من المسيحيين والمسلمين عندما أعطوا لأنفسهم حق الحكم على الآخرين، وتكفيرهم وتجريمهم بمجرد المخالفة في الدين أو المذهب، وقد ترتب على ذلك شر كبير في العلاقة بينهم، لا زالت آثاره جاثمة على هذه العلاقة إلى يوم الناس هذا.

إن دعوة الأنبياء عمومية وليست خاصة بفئة أو طائفة أو جنس أو عنصر، وكان السيد

المسيح -وهو يناقش رجال الدين اليهود- يريد أن يسقط لهم الأساس العنصري الذي يبنون عليه تدينهم، ومن الأمثلة التي ضربها لهم: مثال الإنسان الملك الذي صنع عرسا، وأرسل إلى مدعوين مخصوصين فلم يستجيبوا له، رغم أنه هيأ لهم إكراما عظيما، فذهب واحد إلى حقله والآخر إلى تجارته والباقون اعتدوا على عبيده الذين أرسلهم إليهم بالشتم وحتى القتل، فغضب عليهم لأنهم لم يكونوا مستحقين، وأرسل عبيده إلى مفارق الطرق لدعوة كل من يجدون من الناس(5)؛ وكذلك هي دعوة الله لا تقتصر على المختارين فقط، ولكن تمتد إلى غيرهم ممن لم يُختاروا لها، وخصوصا عندما يستغني عنها المدعوون ولا يذهبون إليها.

اعتراف وتوبة:

إن موضوع التوبة من المواضيع الإنسانية التي انبنى عليها تبشير السيد المسيح ورسالته، حتى أننا يمكن أن نلخص رسالته في قوله: (توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات)، وقد ضرب للناس في هذا الموضوع من كل مثل، فضرب لهم مثل الراعي الذي له مائة خروف، فأضاع واحدا، فترك التسعة والتسعين وذهب يبحث عن الواحد، فلما وجده فرح به أكثر من فرحه بالتسعة والتسعين(6)، وضرب مثلا- بالمرأة التي لها عشرة دراهم، وأضاعت واحدا، فأضاءت السراج وكنست البيت بحثا عنه، ولما وجدته دعت الجيران والصديقات للفرح بالدرهم الضائع(7)، وأمثلة أخرى(8).

إن المنحرفين الذين تابوا إلى الله ورجعوا إليه، هم أفضل بكثير من المختارين الذين رفضوا توبة إخوانهم التائبين، ورجوعهم إلى طريق ربهم، ولعل توبة المسلمين والمسيحيين -اليوم- من أخطاء الماضي ستحقق فيهم تلك الأمة الإنسانية المرجوة، كما حققتها في مجموعات سابقة كانوا أعداء، فألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا(9).

ليس صعبا على من ذاق مرارات الحروب والعداوات، وذاق حلاوة السلام والاستقرار والتعاون والأخوة، أن يسارع إلى نبذ تلكم العداوة وتحقيق: الأخوة مع قبول الاختلاف والاعتراف بالمختلف، الذي لن يكون اختلافه إلاَّ زيادة في الإغناء والإثراء للجميع. والعالم اليوم ينتظر بترقب شديد صلح المسلمين والمسيحيين العميق، لما له من آثار كونية هائلة على الإنسانية برمتها؛ لتعيش في عالم جديد سعيد.

انتزاع الملكوت ممن لا يستحقونه:

لقد كان موضوع انتزاع الملكوت ممن لا يستحقونه من أهم المواضيع التي عالجها السيد المسيح مع اليهود الذين كانوا يرفضون أن يكون لغيرهم من الناس نصيب في الملكوت، وكان u يبين لهم هذا الموضوع من خلال أمثلة متعددة، من ذلك مثل الرجل الذي كان له (ابْنَانِ فَجَاءَ إِلَى الأَوَّلِ وَقَالَ: يَا ابْنِي اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي (29) فَأَجَابَ: مَا أُرِيدُ. وَلَكِنَّهُ نَدِمَ أَخِيرًا وَمَضَى. (30) وَجَاءَ إِلَى الثَّانِي وَقَالَ كَذلِكَ. فَأَجَابَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمْضِ.31)) فَأَيُّ الاثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟) قَالُوا لَهُ: (الأَوَّلُ). قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: (الْحَقَّ أَقُولُ

لَكُمْ إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللهِ (32)؛ لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيراً لِتُؤْمِنُوا بِهِ)(10).

وضرب لهم مثلاً ثانيا بالكرامين الذين لا يعملون بإرادة صاحب الكرم، والذين سيطردهم من كرمه ويعطيه لكرامين آخرين، وما الكرّامون الآخرون إلاَّ الأمة التي تعطيه الأثمار في أوقاتها(11)، وتحترم عبيده وأبناءه ولا تسيء إليهم أبدا، وهو بيان أن الله لا يحابي أحدا من الناس أو أمة من الأمم على أساس انتسابها، وإنما يعاملها على أساس أعمالها.

إن الذي يرفض رسالة الله ثم يتوب ويرجع إليه بعد ذلك خير من ذلك الذي يقبلها لكنه لا يعمل بها، وإن قانون الله في خلقه يقتضي أن ينزع الله تلكم الرسالة من الناس غير المؤهلين لها، ويعطيها لمن يستحقها قولاً وعملاً. وهو المنطق القرآني نفسه في التعامل مع الناس، قال تعالى: (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)(12).

إن التوبة التي ندعو إليها هي التوبة من الخطايا الجماعية التصورية والمفاهيمية والفكرية، والتي من دون التخلص منها لا نستطيع أن نتحرك قيد أنملة إلى الأمام في طريق التعامل الإنساني الرشيد، الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام، ولابد من توبة نصوح صادقة، لا كذب فيها ولا نفاق، وبهذا نستطيع التكفير عن الخطايا والسيئات وتجاوزها، والحصول على الحسنات في الدنيا والآخرة. وهو ما يحدثنا عنه القرآن الكريم في آيات عديدة(13)، وأعتقد أنه قد آن الأوان للمسيحيين والمسلمين أن يعلنوا توبتهم من آثام تاريخية وثقافية ودينية واجتماعية لم يرتكبوها، وإنما ورثوها عن أسلافهم، ما هي من الدين في شيء، وليس لهم بها علم، وما لهم عليها من سلطان.

الغرور والتكبر:

إن الغرور والتكبر وتزكية النفس على حساب الآخرين المخالفين في الدين أو المذهب أو المعتقد هو إثم كبير، كما وقع فيه الأفراد فإن جماعات وطوائف وشعوبا كثيرة وقعت فيه، واعتقدت بسببه اعتقادات باطلة في نفسها وفي الآخرين من حولها، وارتكبت بسببه جرائم لا حصر لها في حق المخالفين، ومن ذلك كثير من طوائف المسيحيين والمسلمين سواء بسواء، وإن المتدبر للكتاب المقدس والقرآن الكريم، ليدرك كم كان صعبا معالجة هذا الإثم وبيانه للأمم المختلفة من طرف رسلهم، الذين بعثهم الله لتزكيتهم وتطهيرهم وتعليمهم وإبعادهم عن السيئات، ومنهم السيد المسيح ومحمد خاتم المرسلين عليهم الصلاة والسلام جميعا.

مراجعات إنجيلية وقرآنية:

لقد كان السيد المسيح يعلّم أتباعه من خلال مواعظ وأمثال كثيرة أن الغرور هو أخطر

آفة يصاب بها أهل الدين، وقد كان u يجاهد من أجل القضاء عليها سواء عند اليهود الذين كان يجاورهم، أم عند أتباعه المؤمنين به، فقد جاء في إنجيل لوقا أنه عليه الصلاة والسلام (قال لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ وَيَحْتَقِرُونَ الآخَرِينَ هذَا الْمَثَلَ:10)) إِنْسَانَانِ صَعِدَا إِلَى الْهَيْكَلِ لِيُصَلِّيَا وَاحِدٌ فَرِّيسِيٌّ وَالآخَرُ عَشَّارٌ (11) أَمَّا الْفَرِّيسِيُّ فَوَقَفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هكَذَا: اَللّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةِ وَلاَ مِثْلَ هذَا الْعَشَّارِ (12) أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الأُسْبُوعِ وَأُعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيهِ (13) وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ لاَ يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلاً: اللّهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِئَ (14) أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ هذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَرَّراً دُونَ ذَاكَ؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ)(14).

ولم يكن السيد المسيح يعالج آفة الغرور عند الأفراد فقط، وإنما كان يعالجه على مستوى الجماعة والأمة، فكان u يتحدث عن ملكوت الله وتداول الأمم لبلاء التجربة الدينية، واتحاد الأمم في الأجر وإن اختلفت في الزمان والمكان، وكان u يبيّن كيف ينبغي لأتباع الرسل ألا يحتجوا على الله في تسوية الناس على اختلاف أزمنتهم في الأجر، فضرب لهم مثلا بالرجل الذي استأجر عمالا لحقله، فاتفق مع بعضهم على دينار في اليوم، وكان قد استأجرهم في الساعة الأولى، ثم استأجر آخرين في الساعة الثالثة، وغيْرَهم في الساعة السادسة ثم التاسعة ثم وجد آخرين بطالين في الساعة الأخيرة من اليوم لم يستأجرهم أحد، فأرسلهم إلى كرمه للعمل ساعة واحدة، وعندما كان المساء أعطى لكل منهم دينارا، مبتدئا بالآخرين ثم الأولين)(10) فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضاً دِينَاراً دِينَاراً. (11) وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ (12) قَائِلِينَ: هؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ!(13) فَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟(14) فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هَذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ(15))، وهي رسالة قوية من السيد المسيح، كان يعالج بها غرور الناس، الذين يعتقدون أنهم يستحقون أجرا أكثر من الأمم الأخرى لكونهم الأقدم تاريخا أو لأي سبب آخر، وهي رسالة يحتاج لتدبرها اليهود والمسيحيون والمسلمون سواء بسواء.

كذلك الأمر بالنسبة لرسالة محمد e، فقد كانت تركز على وحدة الدين، وتعتبر الناس سواسية أمام الله، أفرادا وأمما، وأنه سبحانه سيجازي كل فرد أو أمة بحسب عملها، وليس بحسب شيء آخر؛ وفي ذلك يقول -تعالى- في القرآن الكريم: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)(16)، وقد انتقد القرآن الكريم سلوك فريق من اليهود والنصارى لم يدركوا هذه الحقيقة، فادعى كل منهم أنهم أصحاب الحق ومخالفوهم هم أصحاب الباطل، قال -تعالى-: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(17) لقد بينت لنا هذه الآية أن قول اليهود

والنصارى في هذه المسألة ليس صحيحا، وخصوصا النصارى الذي يتلون كتاب اليهود، ويعتبرونه جزءا من كتابهم المقدس، فكيف بهم يعتمدون كتابهم وينكرون أن يكونوا على شيء، وكذلك هو الأمر بالنسبة لكل من ينكر أن يكون أهل الكتاب يهودا أو نصارى على شيء، ويُعدّ قائل هذا القول جاهلا، ومن ذلك كثير من المسلمين الذين لا يعلمون ويقولون ذلك، وكيف بهم يقولون هذا القول، وقرآنهم مصدق لما بين يديه من الكتاب، فالمفروض فيهم جميعا أن يتركوا الحكم بعضهم على بعضهم، وينظروا إلى أنفسهم، ويتركوا الحكم لله رب العباد ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

كما ادعوا أن من صار على نهجهم فقد اهتدى، ومن خالفهم فقد ضل ضلالا مبينا، قال - تعالى- : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(18).

الأمر نفسه ركز عليه السيد المسيح في دعوته عندما كان يبين لأتباعه من هم المسيحيون الحقيقيون، وأن مسألة الانتماء والتبعية والادعاء لا تغني عن الأعمال، التي على أساسها يقبل الله الناس أو يرفضهم، فكم من شخص سيأتي يوم القيامة ويدَّعي أنه من أتباع السيد المسيح، فإن لم تكن أعماله تشهد له في ذلك اليوم، فإن السيد المسيح سيتبرأ منه، ويقول له: إني لا أعرفك؛ لأنك لم تعمل بما أمرك به ربك(19)؛ لقد كان السيد المسيح يبين لهم أن قيمة الناس بأعمالهم، والتي هي الثمار الحقيقية التي تدل على نوعية أشجارهم الطيبة أو الخبيثة، وليس على شيء آخر. كما كان u يبين لهم أن أتباعه الحقيقيين هم الذين إذا سمعوا أقواله عملوا بها(20).

وانتقد القرآن الكريم ادعاء الأفضلية والولاية لله من دون الناس عند أهل الكتاب، وأنهم أصحاب الجنة وغيرهم أصحاب النار، وأنهم لن تمسهم النار إلاَّ أياما معدودة، وغيرهم يخلدون فيها(21)، وبينت لنا هذه الآية أن الله لم يعاهد أحدا من الناس على هذا الأمر، ولذلك فمن ارتكب السيئات وأحاطت به الخطايا فلن تنفعه أمانيه الباطلة بشيء، ولن تنجيه من العذاب، وأما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وإن اعتقاد هذه الأفضلية هو الذي دفع الإنسان إلى الغرور وأسقطه في حبائل الشيطان(22)، وهو غرور عام وقع فيه اليهود والنصارى ووقع فيه المسلمون بعد ذلك، وغيرهم من الأمم، وبإعادتنا لمراجعة هذه المفاهيم يتأكد لنا أننا على اختلاف مشاربنا بشر بعضنا مثل بعض، أكرمُنا عند الله أتقانا، وليس عند الناس، ولا حسب أمانيهم ومقولاتهم، وذلك يوم يجمعنا إلى يوم لا ريب فيه، وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. ولن ينفع أحد حينها أن يقول: لن تمسنا النار إلاَّ أياما معدودة؛ وسيكتشفون أن

هذه المقولات من الغرور الذي كانوا يفترون في دين الله.

إن التوجيه القرآني والتوجيه الإنجيلي توجيه إلى الناس جميعا، وليس توجيها عنصريا، ولذلك فلا ينبغي أن يفهم منه أحد أنه يزكيه على حساب الآخرين؛ بل إنه يضع له القواعد العامة التي ينبغي أن يسير عليها بغض النظر عن انتمائه، وهو ما يفرض على كل من المسيحيين والمسلمين قراءة بعضهم كتب بعض، والاستفادة منها، باعتبارها كتبا إنسانية مفتوحة، تحمل الهدى والنور، وتقدم بيانات للناس فيما كانوا فيه يختلفون.

ولعلي أستطيع في هذه الفقرات أن أقارب فكرة تزكية الذات عند المسيحيين والمسلمين، وأبين كيف عالجها الإنجيل والقرآن، وكيف استطاع السيد المسيح والنبي الأعظم محمد - عليهما السلام - وغيرهما من الأنبياء تنبيه الناس إليها، وبيان خطورتها، ودفعهم إلى الاستشفاء منها في نصوص عديدة.

أبناء الملكوت:

إن من أهم الأفكار التي تؤدي إلى تزكية الذات، هي ادعاء البنوة للملكوت أو لله، وقد كان فريق من اليهود يدعون هذا الأمر ويعتبرون أن أبناء الملكوت هم المؤهلون لوراثة الآخرة دون باقي الناس، وكان السيد المسيح يبين خطأ اعتقادهم(23). إن بني الملكوت إذا لم يعملوا الأعمال الصالحة التي تؤهلهم للفوز بالجنة والنجاة من النار فسيطرحون إلى الظلمة الخارجية؛ لأنهم أعمال غير صالحة، وإن الكثيرين من الأمم والشعوب الذين ليسوا من بني الملكوت -حسب زعم الزاعمين- سيتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب وينالون الحياة الأبدية.

وقد ورد في الإنجيل قصة أخرى عن هذا الأمر تبين كيف يطرح الأبناء إلى الظلمة الخارجية ويتكئ الأقل درجة مع إبراهيم(24).

وهو ما يتوافق توافقا كاملا مع ما يقوله القرآن عن تزكية الذات، وما يقوله عن قول اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه(25).

إن القرآن من خلال نصوص عديدة يتوافق مع الطرح الإنساني الإنجيلي، وإن كانت الأدبيات المسيحية والإسلامية لا تسير وفق هذا الطرح النبوي العميق، وأعتقد أن مثل هذه القراءات يمكنها أن تسهم في استعادة هذه المفاهيم.

بيت الصلاة لجميع الأمم:

كانت رسالة السيد المسيح رسالة إنسانية عالمية، ودعوة عامة، وكانت مراجعاته النقدية لليهودية تريد إسقاط أساسها العنصري، دون المس بروح كلمات الخالدة؛ لأنَّه u ما جاء لينقض بل ليكمل، ومن المواضيع التي انتقدها السيد المسيح على السلوك اليهودي: حصر الدين الإلهي في الأمة اليهودية دون باقي الأمم، وتحويل بيوت الله إلى مغارة لصوص؛ إذ كان u (يُعَلِّمُ قَائِلاً لَهُمْ: (أَلَيْسَ مَكْتُوباً: بَيْتِي بَيْتَ صَلاَةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ الأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ

مَغَارَة لصُوصٍ)(26). ولم يكن محمد e يسير إلاّ على نهج المرسلين قبله، ومنهم السيد المسيح؛ كانت رسالته رسالة إنسانية عالمية، تحمل نفس الهدى والنور الذي جاء به الكتاب السابق، وتقوم بمثل المراجعات النقدية التي قام بها السيد المسيح لليهود، دون أن يمس ذلك أساس الدين وجوهره؛ لأنَّ محمدًا e ما جاء ليبطل ولا لينسخ، وإنما ليصدق ويكمل، ومن المواضيع التي انتقدها على السلوك الديني السابق؛ منع الذكر في المساجد والسعي في خرابها؛ حتى أنه جعله من أعظم الظلم: (وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّه أَنْ يُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائفينَ لَهُمْ في الدُّنْيَا خزْيٌ وَلَهُمْ في الآخرَة عَذابٌ عَظيمٌ)(27)؛ وعندما يدافع القرآن الكريم عن المساجد بشكل عام فلا يقصد إلاَّ بيوت العبادة التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهي لا تخص المسلمين وحدهم، ولكن تعم جميع الأمم كما قال السيد المسيح من قبل.

إن حقّ الناس في عبادة ربهم على اختلاف أديانهم وأممهم أمر كفله دين الله؛ حتى اعتبر أن الفساد في الأرض -الذي يدرؤه الناس بالتدافع فيما بينهم- يساوي منع الناس من حقوقهم في التعبد، وهدم بيوت عبادتهم؛ قال -تعالى-: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)؛ وقال U: (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)؛ ومن هذه الآيات نفهم أن بيوت العبادة تشمل جميع الشعوب والأمم، وهو ما يساعدنا على أن نفهم بشكل جيد قوله -تعالى-: (اللَّه نُورُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ مَثَلُ نُوره كَمشْكَاةٍ فيهَا مصْبَاحٌ الْمصْبَاحُ في زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ منْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقيَّةٍ وَلاَ غَرْبيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدي اللَّه لنُوره مَنْ يَشَاءُ وَيَضْربُ اللَّه الأَمْثَالَ للنَّاس وَاللَّه بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ. في بُيُوتٍ أَذنَ اللَّه أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ. رجَالٌ لاَ تُلْهيهِمْ تجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذكْر اللَّه وَإقَامِ الصَّلاَة وَإيتَاءِ الزَّكَاة يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فيه الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)(28).

إن السيد المسيح ومحمدا ـ عليهما الصلاة والسلام ـ كانا يؤسسان للدين العالمي الذي تتساوى فيه جميع الأمم، ويحصلون على جميع حقوقهم الإنسانية بما فيها حق العبادة والتدين، ولعل كثيرا من المسيحيين والمسلمين اليوم لا يقدر بعضهم على قبول بعض والاعتراف بدينه، بل إن مجرد ظهور أي مشكلة بين الفريقين تدفع كلا منهما إلى قصد دور عبادة الآخر؛ لهدمها ومنع ذكر الله فيها، وهو أكبر الظلم وغاية الإفساد.

العمل وقيمة الإنسان:

ارتبطت قيمة الناس عند السيد المسيح بأعمالهم وليس بأنسابهم أو انتماءاتهم، ويوم يعرض الناس على الله يوم القيامة، سيكون التمييز بينهم على أساس هذه الأعمال وليس أي شيء آخر(29). إن ما يريده الله من الناس هو أن يحسنوا إلى أنفسهم، ويحسن بعضهم لبعض، ولا يتركوا بينهم جائعا ولا عطشان ولا غريبا ولا عريانا، ولا مريضا ولا محبوسا، وعندما يفعلون ذلك فسيكونون قد عبدوا الله حق عبادته، وإلا فإن تعبدهم لن

ينفعهم بشيء.

إن أهم شيء يمكن أن يجتمع عليه المسيحيون والمسلمون اليوم -لتجاوز أخطاء الماضي- هو التعاون على إنجاز المشاريع المشتركة الإنسانية، التي تقضي على الفقر والجوع والمرض والعطش والعري والتشرد الفردي والجماعي والتخلف البشري والحروب، وعندها فقط سيرضى السيد المسيح ويرضى الرسول الخاتم وجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على المسار الصحيح الذي اهتدينا إليه.

إن نظرة سريعة في دعوة النبي يوحنا وهو يمهد لظهور السيد المسيح لَتكشف عن أمر العمل بما لا يقبل الشك(30)، وهو ما يعني أن قيمة الإنسان يحددها عمله وليس انتماءه ولا نسبه ولا عنصره، لقد كان u يُسقط الفكر العنصري من أساسه، ويُبين أن شرف الناس وطهارتهم لا علاقة لها بانتمائهم إلى الأب إبراهيم أو ابتعادهم عنه؛ فالله قادر على أن يجعل من الحجارة أبناءً لإبراهيم، إن عملت بأعمال إبراهيم. كما أن الفروع غير المثمرة تُفصل عن أصولها وتلقى في النار؛ لأنَّها لا تثمر، وكذلك فروع شجرة إبراهيم الذين لا يعملون الصالحات تتبرأ منهم أصولهم وينقطعون عنها ويلقون في النار، وإن أبناء إبراهيم الحقيقيين هم الذين غيروا سلوكهم من السلبية إلى الإيجابية، وسألوا عما ينبغي فعله(31).

عيوب الذات بدل عيوب الآخرين:

ومقابل البر والإحسان والعمل الصالح الذي دعت إليه الرسالتان القرآنية والإنجيلية، فإن الراغب في الكمال لا ينبغي له أن ينظر إلى عيوب الناس ليحصيها؛ ولكن يبحث في عيوب نفسه ليتركها، فيكون صالحا وكاملا كما يريده ربه، يقول السيد المسيح: (لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا (2) لأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ (3) وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِي فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِي فِي عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطُنُ لَهَا؟ (4) أَمْ كَيْفَ تَقُولُ لأَخِيكَ: دَعْنِي أُخْرِجِ الْقَذَى مِنْ عَيْنِكَ وَهَا الْخَشَبَةُ فِي عَيْنِكَ (5) يَا مُرَائِي أَخْرِجْ أَوَّلاً الْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ وَحِينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّداً أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ!)(32).

إن مشكلة تزكية الذات تجعل الإنسان لا ينظر إلى عيوبه أبدا، وإنما ينظر دائما إلى جوانب كماله فقط، بينما ينظر إلى عيوب غيره ولا يدرك شيئاً عن أموره الإيجابية، وهو بدل أن يزيل الخشبة من عينه، فهو يبحث عن القذى في عين أخيه، وهو ما نجده مجسدا فيما يطلق عليه الحوار أو الجدل المسيحي/الإسلامي، والإسلامي/المسيحي؛ إذ تجد المسيحيين يبحثون عن كل عيب أو خطأ أو باطل في دين المسلمين وما عندهم، وتجد المسلمين يبحثون عن الأمر نفسه في دين المسيحيين وما عندهم، وإن نظرة خاطفة على قنوات الحوار المسيحي الإسلامي ومواقعه الإلكترونية لتؤكد ما نقول.

وخلاصة القول: أن كلا من المسيحيين والمسلمين يزكون أنفسهم وما هم عليه، ويبخسون الآخرين أشياءهم، ويقولون: نحن أصحاب الحق المبين وغيرنا أصحاب الباطل

المستبين، ومن أراد النجاة والهدى والدخول إلى الجنة والنجاة من النار فما عليه إلاّ أن ينتمي إلينا ويكون واحدا منا، وإلا فإنه من أصحاب الجحيم؛ بينما يقولون عن مخالفيهم: إنهم ليسوا على شيء حتى يكونوا على ما نحن عليه.

من القريب؟

إن موضوع الحوار الديني أو التقارب الديني لا يعني تنازل كل فريق عن بعض أفكاره ومعتقداته للفريق الآخر، وإنما يبدأ التقارب من قيام كلا الفريقين بإقامة الهدى والنور الموجود في كتابه، وهو مصدق بالهدى والنور الموجود في كتاب مخالفه، ومنه التعامل بالقيم الإنسانية المشتركة التي لم نجد دينا من الأديان ولا مذهبا من المذاهب ولا فلسفة من الفلسفات يتنكر لها. وفي هذا يحدثنا الإنجيل عن حوارٍ بين أحد اليهود والسيد المسيح عن القرابة، قال: (وَإِذَا نَامُوسِيٌّ قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلاً: (يَا مُعَلِّمُ مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟) (26) فَقَالَ لَهُ: (مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟)(27) فَأَجَابَ: (تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ)(28). فَقَالَ لَهُ: (بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. افْعَلْ هذَا فَتَحْيَا)(29). وَأَمَّا هُوَ فَإِذْ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّرَ نَفْسَهُ سَأَلَ يَسُوعَ: (وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟)(30) فَأَجَابَ يَسُوعُ: (إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ.(31) فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِناً نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ.(32) وَكَذلِكَ لاوِيٌّ أَيْضاً إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ.(33) وَلكِنَّ سَامِرِيًّا مُسَافِراً جَاءَ إِلَيْهِ وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ(34) فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتاً وَخَمْراً وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ.(35) وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ.(36) فَأَيُّ هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيباً لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللُّصُوصِ؟)(37) فَقَالَ: (الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ) . فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: (اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضاً وَاصْنَعْ هكَذَا)(33). إن القريب الحقيقي هو صاحب العمل الصالح النافع لك والرحيم بك، بغض النظر عن انتمائه الديني والمذهبي، ويقابله البعيد الحقيقي الذي قد يكون من دينك وجنسك ودمك ولكنه لا ينفعك ولا يرحمك، ولذلك كانت الدعوة النصرانية دعوة رحيمة، والنص الذي بين أيدينا هو أحد الأمثلة على ذلك، كما أن الدعوة المحمدية هي رسالة رحمة عالمية يمكن تلخيصها في قوله -تعالى-: (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)؛ لكن على الرغم من ذلك فإن قرونا من عدم التفاهم والتفهم بين المسيحيين والمسلمين حالت دون تحقيق: التقارب المطلوب، والذي أشار القرآن الكريم إلى جانب أساسي منه، يتعلق بالقرب العاطفي الموجود مع فريقٍ من النصارى، قال -تعالى-: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)(34).

أعتقد أنه قد جاء الوقت للبحث عن سبل التواصل والتقارب بين المسيحيين والمسلمين،

وأعتقد أن ما سماه القرآن (الدفع بالتي هي أحسن)، وسماه السيد المسيح (الإحسان إلى المبغضين)، ينبغي تجريبه حتى يصير عدوُّ الأمس وليًّا حميما، وهي مسؤولية مشتركة بين المسيحيين والمسلمين، وكما تقع على السياسيين فإنها تقع على المفكرين والعلماء والإعلاميين وغيرهم سواء بسواء.

بعد هذه الإثارة الفكرية لبعض الأسئلة التي ينبغي الإجابة عليها في موضوع الحوار المسيحي الإسلامي، سأقترح عليكم شبهتين رأيت أنهما يشكلان عائقين كبيرين وأساسيين في الحوار المسيحي الإسلامي، الأول يقوله المسلمون، والثاني يردده النصارى؛ فأمَّا **الأول** فهو قولهم: إن الكتب السابقة قد حرفت وأن المسيحيين قد ضلوا، ولا سبيل لهم للاهتداء إلاَّ بالارتداد عن دينهم والدخول في الإسلام؛ لأنَّ الله لا يقبل غيره.

والثاني قول النصارى: إن القرآن قد أخذه محمد ممَّا جاء في الكتب المقدسة القانونية وغيرها وصاغه بلسان عربي مبين، وهو كفر صريح من كل طائفة بالطائفة التي تحاورها يمنعهما من الجلوس الحقيقي إلى طاولة الحوار، والبحث عن الكلمة السواء، وأتمنى أن أثير باقتراحي هذا توجيه الحوار إلى هذا الاتجاه.

شبهة إبطال القرآن للكتب المقدسة ونسخه لها(35):

يقول المسلمون: إن القرآن الكريم ناسخ لما قبله من الكتب المقدسة ومبطل لها، وأنه هو الذكر المقصود في قوله -تعالى-: (إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون)، دون باقي الكتب السابقة التي أنزلت على باقي الأنبياء والرسل، وأن هذه الكتب قد تعرضت للتبديل والتحريف؛ إذ استحفظ عليها الأحبار والرهبان؛ لكنهم ما استطاعوا حفظها؛ ولذلك فلا يصح منها شيء، وأصحابها ليسوا على شيء، حتى يرجعوا عن دينهم ويؤمنوا بما جاء به محمد e ويدخلوا في دينه، وإلا فإن الله لن يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً ولا إيماناً ولا عملاً صالحا، ومن ثم فإنهم كفّار ومشركون، وربما عند الكثيرين لم يعودوا أهل كتاب، ولا تسري عليهم أحكام أهل الكتاب، ويستشهد أصحاب هذا القول بقوله -تعالى-: (إن الدين عند الإسلام) (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)، فإذا أضيف إلى ذلك بعض النصوص المنتزعة من سياقاتها النصية والتاريخية، مثل قوله -تعالى-: (واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)، أصبحوا مهدوري الدم، وربما يحصل سافك دمهم على أجر وثواب، ويكتسي هذا القول -مع تفاوت بين التيارات- صبغة الإجماع الثقافي في عالمنا الإسلامي، وهو يغلق الباب أمام البحث عن الكلمة السواء بين الأديان والمشترك مع أهل الكتاب، ويدفع إلى إبراز التمايز بين المسلمين وغيرهم على أساس المقولات الدينية مثل الحق والباطل والكفر والإيمان والولاء والبراء، كما يجعل دعاة التعايش والسلام والتعاون والمشترك الإنساني في موقف شديد الحرج، يجعل منهم خونة ومنافقين وأولياء الكفار وأعداء.

ردود وتوضيحات:

1- وللرد على هذه الأفكار يمكن القول: إن القرآن الكريم ليس ناسخا لما قبله من الكتب ولا- مبطلا لها؛ بل هو عكس ذلك تماما، مصدق لما بين يديه من الكتاب يؤكد ما فيه من الحق ويشهد لما فيه من الهدى والنور، ويبرز ما يتضمنه من الوحي والنبوة والذكر؛ ولذلك فلم يتحدث القرآن الكريم عنه أبداً حديثا سلبيا، وكل ما في القرآن عن الكتب المقدسة هو إشادة وتعظيم، وتصديق واعتراف؛ بل إن المطّلع على آيات القرآن ليكتشف أن جزءًا كبيراً من المصحف يعيد ذكر ما جاء في الكتب المقدسة، تحت عنوان (واذكر في الكتاب)، أو (إن هذا لفي الصحف الأولى)، أو (وإنه لفي زبر الأولين)، أو (مَثَلهم في التوراة) أو (ومَثَلهم في الإنجيل)؛ ومن ثم فإن مقولة (نسخ القرآن للكتب السابقة وإبطالها) باطلة.

2- وأمّا قولهم (إن المقصود بقوله -تعالى-: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) هو القرآن الكريم دون غيره من الكتاب فلا يصح لعدة أسباب، منها أن لفظة الذكر قد وصف بها القرآن الكريم كما وصف بها غيره من الكتاب السابق، ومن ذلك قوله -تعالى-: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ . وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)(36)؛ فالله -حسب هذه الآية- قد آتى موسى وهارون ذكرا للمتقين.

وقال U : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(37). فأهل الذكر هنا هم أتباع الأنبياء الذين أوحى الله إليهم من قبل محمد، ويبينه قوله -تعالى-: (فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك)، فهم أهل الذكر.

وقال -تعالى-: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(38) لقد بينت لنا هذه الآية أن الله أنزل على الرسل قبل محمد ذكرا، وأن أتباعهم هم أهل الذكر الذين يسألون عن موضوع الوحي إلى الرجال، كما أنزل الله إلى محمد ذكرا آخر لبيان الذكر السابق وتصديقه والتأمين والهيمنة عليه.

وقال -سبحانه-: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)(39)، وهو تأكيد للذكر في الكتب السابقة.

بل إن مفهوم الذكر لا يأخذ معناه إلاَّ من التذكير بما في الكتاب السابق: (ذكر رحمة ربك عبده زكريا)، (ذكر مَنْ معي وذكْرُ مَنْ قبلي)، (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى).

ومن الأسباب التي تجعل تخصيص القرآن بالحفظ دون غيره من الذكر باطلا، أن الذكر الذي جاء به الرسل قبل محمَّد e، هو الحق الذي لا- يمكن للباطل أن يغلبه، وهو نور الله الذي لا- تطفئه إرادات المغرضين، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون والمشركون والمجرمون. وما مجيء القرآن إلاَّ فضح لكل أساليب التزوير الماضية والقائمة والمقبلة التي يقوم بها الناس سواء من أهل الكتاب أم من غيرهم.

3- وأما قولهم: (إن هذه الكتب قد تعرضت للتحريف بشهادة القرآن في نصوص متعددة) فيحتاج إلى تأمل.

إذ لم يقل القرآن الكريم: إن كتب الله تعرضت للتحريف والتبديل، وإنما ذكر أن بعض أهل الكتاب في تعاملهم مع كتابهم قد حرفوا وأخفوا وأبدوا وألبسوا حقا بباطل وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا بآياته ثمنا قليلا و...؟؛ وبين الأمرين فرق مهم؛ فكتاب الله وكلماته والذكر الوارد فيه والحقّ والهدى والنور الذي جاء به الرسل محفوظ سواء في أسفارِ العهدِ القديم أوِ العهد الجدِيد أو القرآن؛ مصداقا لقوله تعالى: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا(27))(40).

- وأما ما قام به الناس في تعاملهم مع كتبهم المقدسة فليس واحدا؛ ولذلك ففي حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب، نجد تفريقا مهماً بين صنفين من أهل الكتاب، ليسوا سواء، فريق منهم مؤمن صادق يتلو كتاب الله حق تلاوته ويقيمه في حياته ويتبع نوره وهديه، وهو من الصالحين، وفريق ثان يترك كتاب الله وراء ظهره، أو يتبع ما يتلو الشيطان على عهد سليمان، أو يحرف الكلم عن مواضعه...؛ وكل هذه سلوكات أهل الكتاب قاموا بها تجاه كتاب ربهم؟

- لماذا ذكرها لنا القرآن؟ هل ليقول لنا انظروا إلى هؤلاء المنحرفين حرفوا كتابهم، وأما أنتم فتحملت أنا مسؤولية حفظ كتابكم من التحريف الذي يمكن أن تقوموا به؟ فلا تخافوا إذن فأنتم الناجون ممَّا سبق وتعرضت له الأمم السابقة؟؟

- أعتقد أن هذه هي النتيجة الطبيعية لخطاب الحفظ الخاص؛ وإلا فإن ما فعله السابقون بكتبهم يمكن أن نفعله بكتابنا سواء بسواء، فتركهم الكتاب وراء ظهورهم، لا يختلف عن قول الرسول: (رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا)، وطول الأمد وقسوة قلب الذين أوتوا الكتاب من قبل لا يسلم منها أتباع محمد إلا إذا احترسوا أن يقعوا في أخطاء السابقين، ولذلك حذرهم القرآن من ذلك بقوله: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذينِ أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون). وضَرْبُه مَثَل الحمار الذي يحمل أسفارا، ليس مقصورا على حامل التوراة الذي لا يحملها، ولا يستثنى منه حامل القرآن أو الإنجيل الذي لا يحمله، والمحرفون للكلم عن مواضعه قد يقومون بذلك في أي كلم، وكذلك المشترون بآيات الله ثمنا قليلا، والذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله، والذين يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب وغير ذلك، إنها سلوكيات بشرية ونماذج إنسانية نجدها في كل دين ينبغي الحذر منها، ولا علاقة لذلك بذكرٍ حُفظ وذكر لم يحفظ.

- إن الخاسر في النهاية ليس هو الذكر، فالله تكفل بحفظه، سواء في السابق أو اللاحق؛ وإنما هم الناس الذين ضلوا عنه، بمحاولاتهم إطفاء نور الله فانطفأ نورهم، وبقي نور الله ساطعا تسير في ضوئه السماوات والأرض وما فيهن. (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا

يرجعون) صدق الله العظيم.

- إن القرآن الكريم وهو يحدثنا عن مواقف أهل الكتاب من كتابهم التوراة أو الإنجيل؛ بل ومواقفهم من القرآن الكريم ذاته، وكذلك مواقفهم من رسلهم ومن خاتم المرسلين؛ كما يحدثنا عن سلوكيات أصحاب التجربة المحمدية المختلفة الإيجابية والسلبية؛ كان يبين لنا سنن الله في خلقه، ويكشف لنا عن طبيعة الناس بمختلف أنماطها، من خلال تجارب معينة وأمثلة محددة؛ ليقول لنا في النهاية: (فاعتبروا يا أولي الأبصار)؛ وكان القرآن بذلك يهدي الناس للتي هي أقوم في التعامل مع كتب الله U ورسله؛ والتحذير من محاولات التدخل البشرية التي يمكن أن تقع في هذه الكتب في كل آن وحين، وخصوصا من أتباعها.

- إن ما حدَّثنا به القرآن في تعامل أهل الكتاب مع كتابهم المقدس أو مع القرآن الكريم لِيُقدم للبشرية منهجا متكاملا في التعامل مع الوحي، نحتاج إلى شيء من تدبر القرآن لنستخرجه، وهو منهج إنساني صالح لجميع البشر إذا أرادوا أن يتعاملوا مع الوحي بشكل صحيح، سواء أكانوا من المؤمنين بمحمد أم من أهل الكتاب؛ وهو عمل مقدور عليه يحتاج فقط إلى بعض الوقت وشيء من التفرغ.

- إن كل ما انبنى على فكرة بطلان الكتاب السابق ونسخه وتحريفه لا يعتد به، ومن ذلك كفر وشرك أهل الكتاب جميعا، والحقيقة أنهم ليسوا سواء، منهم المؤمنون ومنهم دون ذلك؛ كما هو الأمر بالنسبة لأتباع محمد سواء بسواء، والله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

أما مفهوم الإسلام ومَنْ هو المسلم فيحتاج إلى إعادة قراءة حقيقية من النصوص المؤسسة، تعيد للإسلام مفهومه الإنساني العالمي بعيدا عن المذهبية التاريخية الإسلامية، التي أرادت أن تحتكر هذا المفهوم وتقصي منه شعوبا وأجناسا وأناسي كثيرا.

إن مراجعة هذه المفاهيم وتفكيكها -في ضوء النصوص الدينية المؤسسة- ضروري لتمييز الرباني من البشري والمطلق من النسبي، وإزالة هالة القدسية -من جهة ثانية- عن كثير من المفاهيم الدينية المتداولة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وبيان تاريخيتها ونسبيتها؛ وإعادة الاعتبار للمفاهيم والقيم العليا المطلقة وإعطائها أبعادها وقيمتها التي تستحق.

شبهة أخذ القرآن لما جاء في الكتب المقدسة السابقة وصياغته بلسان عربي:

ومن الشبهِ التي أصبحت من المسلمات عند المسيحيين، والتي لا- زالت تمنع كثيرين منهم من الاطّلاع على النص القرآني واكتشافه والاستفادة منه، قولهم: إن محمدا قد ألّف القرآن ممَّا جمعه من بعض الأحبار والرهبان وصاغه بلسان عربي، وادعى أنه من الله، وأود في هذه الفقرة الرد على هذا الادعاء، وذلك بعقد مقارنة علمية بين الإنجيل والقرآن نكتشف من خلالهما الإضافة النوعية القرآنية، والتي باكتشافها سيندفع كثير من المسيحيين والمسلمين إلى الانفتاح على القرآن والإنجيل ومدارستهما، وترك كثير من المسبقات

الباطلة المتعلقة بهما.

رغم أن السيدة مريم العذراء من أعظم الشخصيات الدينية المسيحية، باعتبارها وابنها آية الله للعالمين، إلاَّ أنها لم تأخذ حظها الكافي من الاعتبار في الأسفار المسيحية القانونية بما فيها من أناجيل وأعمال ورسائل ورؤى، وإن كانت الأسفار المسيحية المنحولة والخفية تحافظ على الجزء الأكبر من هذا الاعتبار؛ ونعتقد أن للقرآن الكريم تلاوة جديدة لمجمل هذه النصوص، يمكن أن نستفيد منها أن النص القرآني ليس مجرد إعادة نقل للنصوص المسيحية (وكذا اليهودية بالنسبة لأسفار العهد القديم) بلسان عربي، كما قد يفهمه البعض ويروج له البعض الآخر؛ وإنما هي مدارسة علمية تصدّق الحقائق الموجودة في النصوص القانونية وغيرها، وتعيد الاعتبار للمفاهيم والأفكار والعقائد والتصورات التي رفضها مقننو النص المقدس من اليهود والمسيحيين، والتي يوجد الكثير منها في النصوص غير القانونية والمخفية (أبوكريفا)؛ كما تُناقش مع أهل الكتاب المختلفين ما كانوا فيه يختلفون، وتقدم اقتراحات وبينات في هذا الخلاف، أظن أن المتأمل فيها سيعلم أن محمدا عليه الصلاة والسلام ما كان بدعا من رسل الله وما كان دعيا، كما يعتقد كثير من إخواننا المسيحيين، وإنما هو النبي الآتي الشاهد لما جاء به المسيح والأنبياء قبله، وأن ما يخبر به لا ينطق به من عند نفسه، وإنما ممَّا يوحيه إليه ربه، وأنه الرسول الذي بشر به السيد المسيح محذرا أتباعه من الكفر به؛ لأنَّ من كفر به فقد كفر بالسيد المسيح نفسه وبجميع الأنبياء، ومن آمن به فقد آمن بالسيد المسيح نفسه وبجميع الأنبياء وصدّق بكلمات الله الثابتة إلى الأبد، ومن لم يؤمن به فخير له أن يربط حجر رحى في عنقه ويلقى إلى البحر؛ كما ذكره السيد المسيح u.

إننا في هذه المحاولة نريد أن نبين الإضافة النوعية القرآنية، التي يحتاج كل من المسيحيين والمسلمين للتعرف عليها؛ لفهم العلاقة الموجودة بين الكتابين الإنجيل والقرآن، فالقرآن ليس كتابا مؤلفا ممَّا ورد عند النصارى واليهود، ألفه محمد من تلقاء نفسه، كما يدعي كثير من أهل الكتاب؛ كما أنه ليس كتابا ناسخا ومبطلا للكتب الأخرى كما يقول المسلمون؛ وإنما هو كتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وهو ما سنراه في المقارنة التالية في بعض النصوص المتحدثة عن العذراء في الإنجيل القانوني والقرآن الكريم.

الولادة المعجزة والولادة الجسدية: تصديق

لم يرد الحديث عن حياة العذراء قبل الولادة المعجزة في إنجيلي مرقس ويوحنا، وإنما في إنجيلي متى ولوقا فقط.

ونسجل بعض الملاحظات قبل إجراء المقارنة

افتتح إنجيل متى بالحديث عن نسب يسوع المسيح، محددا الفكرة الأساسية لهذا الافتتاح في أن يسوع هو ابن داود بن إبراهيم؛ وهو ما يعني أنه هو المسيح المنتظر حسب

المواعيد اليهودية، والذي يُفترض فيه أن يكون يهوديا من نسل داود وإبراهيم، وأن يحقق الوعدين بامتلاك الأرض واسترجاع المملكة.

ليس مهما بعد ذلك التناقض الموجود بين الولادة المعجزة من غير أب، والولادة الجسدية من أب يهودي، ويمكن التنازل عن الفكرة الأولى لصالح الفكرة الثانية، وهو ما تأسست عليه النظرية البولسية، التي تحدثت عن الولادتين الجسدية من جهة داود والروحية من جهة الله، فغابت بذلك فكرة الولادة المعجزة؛ رغم أن الإنجيلين معا قد تحدثا عنها، واعتبراها آية الله للعالمين، وقبل أن نواصل حديثنا عن الولادة الجسدية، فلابد من التأكيد على ما جاء في الإنجيلين معا عن الولادة المعجزة؛ حيث جاء في إنجيل متى في حديثه عن الولادة: (أَمَّا وِلاَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هَكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ)(41).

ولادة السيد المسيح هي إذن ولادة معجزة، وآية من الله تبين أنه ليس هناك شيء غير ممكن لدى الله، وكما أن العجوز يمكن أن تحبل في شيخوختها بقدرة العليّ، فكذلك العذراء التي اصطفاها الله لهذه المهمة وجعلها آية للعالمين. وهو ما نتلوه بشكل واضح في دعاء مريم وشكرها لله في إنجيل لوقا نفسه حيث قال:

(فَقَالَتْ مَرْيَمُ: (تُعَظِّمُ نَفْسِي الرَّبَّ (47) وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللَّهِ مُخَلِّصِي (48) لأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أَمَتِهِ. فَهُوَذَا مُنْذُ الآنَ جَمِيعُ الأَجْيَالِ تُطَوِّبُنِي(49) ؛ لأَنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ وَاسْمُهُ قُدُّوسٌ)(42)؛ لقد كانت عليها السلام صدّيقة مؤمنة اختارها الله على علم، وجعلها آية للعالمين، وصنع بها القدير عظائم، حتى صارت جميع الأجيال تطوبها.

هذا هو الحق الذي جاء القرآن لتصديقه وبيانه ودفع الشبه عنه، ودمغ الباطل المخالف له، وبيان الحق فيما يختلف فيه أهل الكتاب، قال -تعالى-: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47))(43).

إن كل هذه البيانات القرآنية إنما كانت تهدف إلى حقيقة واحدة، وهي تصديق ما جاء في الإنجيل من بشارات ومعجزات في شأن مريم العذراء وابنها؛ لكنه في الوقت نفسه جاء يبين الحق فيما اعتبره رجال الكنيسة غير قانوني، أو مخفيا أو منحولا، ويشهد له؛ ويراجع ما أضافه رجال الكنيسة إلى دين السيد المسيح من مفاهيم وتصورات وعقائد ويناقشها بالحجج والبراهين المحكمة الموجودة عندهم في الكتاب.

لقد حكم رجال الكنيسة على كثير من النصوص الإنجيلية بعدم القانونية، ليس لعدم توفرها على بضعة شروط تتعلق باللغة وزمن الكتابة وشخصية الكاتب فقط، ولكن بسبب ما تحمله من أفكار مخالفة للكنيسة ولمعتقداتها التي نصت عليها المجامع، والتي ما

ابتدعت قانونية النصوص إلاّ- لاستبعاد كل الأناجيل التي لا- توافق إجماعها، ومن تلكم الأناجيل ما يطلق عليه أناجيل الطفولة، والتي -رغم ما يبدو في بعضها من انتحال- تحمل قدرا مهما من الحقيقة، وكثير منها يُعتبر من مصادر الأناجيل القانونية ذاتها، وكثير منها يذكر تفاصيل مهمة عن حياة العذراء وعفتها وطهارتها وتبتلها، أهملتها النصوص القانونية؛ وإن كان كثير من المناسبات المسيحية لا زالت تحيي تلكم الأحداث، ومن ذلك ميلاد العذراء، ودخولها للمعبد، وخروجها منه، والتي تتخذها بعض البلاد المسيحية أعيادا دينية مهمة تحتفل بها كل سنة.

مقولات عنصرية:

إن تركيز القرآن الكريم على الولادة المعجزة وتصديق ما جاء به الإنجيل فيها يصطدم بالمقولات اليهودية العنصرية التي تفترض في المسيح أن يكون يهوديا، ومن صلب داود وإبراهيم، ويتحقق على يديه امتلاك الأرض واسترجاع الملك، وقد شهد التاريخ في زمن السيد المسيح أن رسالته لم تكن لتحقيق: هذه الأحلام والأماني، وإنما كانت لرد الناس -وخصوصا بني إسرائيل- إلى ربهم ومغفرة خطاياهم إن تابوا إليه.

كانت رسالة السيد المسيح مراجعة عميقة للعنصرية، التي ربطها اليهود بالأب إبراهيم، فأرجعها السيد المسيح إلى الأعمال بدل الآباء، (لقد وضعت الفأس على أصل الشجر، فأيما شجرة لا تثمر ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار)؛ (لا تقولوا في أنفسكم إن لنا إبراهيم أبا فإن الله قادر على أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم).

و كان السيد المسيح آية بينة، ولد من غير أب، واختاره الله ليكون رسولا للعالمين، وفي ذلكم رسالة واضحة إلى بني إسرائيل أن النبوة والكتاب ليس من اللازم أن تكون فيهم وفي ذريتهم، بل إن الله قادر على خلق بشر من غير أب واتخاذه رسولا وإيتائه النبوة والكتاب، وهو ما فعله سبحانه مع السيد المسيح وأمه العذراء.

لكن فريقا من بني إسرائيل رفض هذا المنطق، وكفر بالدعوة التي جاء بها المسيح، وحاربها على جميع المستويات، وخصوصا على مستوى المفاهيم والأفكار، ولقد ذكر لنا الإنجيل بعض هذه النقاشات التي كانت على عهد السيد المسيح، وحدثنا الإنجيل أن السيد المسيح قد ردّ عليها وفندها، وفي رواية أخرى أنه حدث بسببها انشقاق بينهم؛ ففي إنجيل متّى أخبرنا أن المسيح قد ناقش الفريسيين:

وَفِيمَا كَانَ الْفَرِّيسِيُّونَ مُجْتَمِعِينَ سَأَلَهُمْ يَسُوعُ: (42) (مَاذَا تَظُنُّونَ فِي الْمَسِيحِ؟ ابن مَنْ هُوَ؟) قَالُوا لَهُ: (ابْنُ دَاوُدَ). (43) قَالَ لَهُمْ: (فَكَيْفَ يَدْعُوهُ دَاوُدُ بِالرُّوحِ رَبًّا قَائِلاً: (44) قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ؟ (45) فَإِنْ كَانَ دَاوُدُ يَدْعُوهُ رَبًّا فَكَيْفَ يَكُونُ ابْنَهُ؟) (46)فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يُجِيبَهُ بِكَلِمَةٍ. وَمِنْ ذلك الْيَوْمِ لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ أَنْ يَسْأَلَهُ بَتَّةً)(44).

وحسب هذا الجواب فإن السيد المسيح قد رفض أن يكون ابنا لداود، واستنكر أقوال

الفريسيين والكتبة(45)، وكان يمكن لهذا الاستنكار أن ينبني على الولادة المعجزة لدحض الولادة الجسدية، وليس على الولادة الروحية، حيث سيقول لهم: كيف تدعونني ابن داود وأمي لم تعرف بشرا ولم تكن لها أي علاقة جنسية مع أحد، وإنما كُنت وإياها آية من آيات الله إلى العالمين؟ كما تؤكده النصوص الإنجيلية التي ذكرنا، ونصوص إنجيلية أخرى اعتبروها منحولة.

إن موضوع الولادة الجسدية من داود قد حدث بسببه انشقاق في المجتمع الذي كان فيه السيد المسيح، وهو ما حدثنا عنه يوحنا في إنجيله قال: (فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هَذَا الْكَلاَمَ قَالُوا: (هَذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ). (41) آخَرُونَ قَالُوا: (هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ). وَآخَرُونَ قَالُوا: (أَلَعَلَّ الْمَسِيحَ مِنَ الْجَلِيلِ يَأْتِي؟ (42) أَلَمْ يَقُلِ الْكِتَابُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ وَمِنْ بَيْتِ لَحْمٍ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَ دَاوُدُ فِيهَا يَأْتِي الْمَسِيحُ؟) (43)فَحَدَثَ انْشِقَاقٌ فِي الْجَمْعِ لِسَبَبِهِ)(46). وتبعا لهذا الوصف الذي قدّمه لنا يوحنا، فالمستنكرون لكونه ليس هو المسيح ولا النبي، فعلوا ذلك لأنهم يفترضون أن يأتي المسيح والنبي من نسل داود، ممَّا يعني أنهم كانوا على علم كامل أنه لم يكن من هذا النسل، وأقول: بل لأنهم كانوا يعلمون علما كاملا أن هذا المسيح هو ابن مريم الذي ولد من غير أب، ولذلك حدث بينهم انشقاق فآمن من آمن وصدّق بالآية البينة، وكفر من كفر من بني إسرائيل وجحد بها.

لقد كان القرآن حريصا على ألا يسمح بأي تأويل لنصوصه في هذه المسألة، ولذلك لم يذكر السيد المسيح إلاَّ مقرونا باسم أمه: (عيسى ابن مريم)، حتى لا يذهب بها المأولون إلى أي اتجاه، سواء أتعلق الأمر بالولادة الجسدية أم الولادة الروحية، (ابن داود) أو (ابن الله)، كما كان حريصا على تفصيل حادثة الولادة ووصفها وصفا دقيقا يصدّق الوصف الإنجيلي ويؤكده ويبني عليه؛ فالملاك قد جاء إليها وكلّمها في شأن البشارة، فاستنكرت هذه البشارة على اعتبار أن لا أحد قد اطلع عليها أو عاشرها، فأخبرها الملاك أنها إرادة الله؛ ليجعل منها ومن ابنها آية للعالمين، وأن الأمر سيكون بإذن الله الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فقبلت إرادة الله واستجابت لأمره، وكان ما كان من الولادة المعجزة.

والحاصل إذن أن القرآن الكريم وهو يعيد تلاوة قصة السيدة العذراء، كان يقف وقفات علمية نقدية لا يدركها إلاَّ الدارسون للكتاب المقدس؛ ولذلك قال تعالى عن علماء بني إسرائيل: (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)، وقد كان سياق الحديث عن قضايا تتعلق بالكتاب المقدس اليهودي. والأمر نفسه نقوله عن القضايا المسيحية.

هذا مثال لإخواننا المسيحيين يبين ما هو الجديد في النص القرآني بالنسبة للكتب السابقة، كما يبين للمسلمين أن محمدا e ما جاء ليبطل ولا لينسخ ولا ليلغي، وإنما جاء ليصدق ويؤمن ويكمل، وهو ما يعني أن الحق الذي جاء به السيد المسيح والأنبياء من قبله لا زال موجودا في الكتاب المقدس كما أنزل، لم يَضِعْ منه شيء ولن يضيع رغم محاولات المغرضين.

إن انتقاد القرآن لأفعال بعض المسيحيين أو اليهود تجاه كتابهم، لم يكن يعني أبدا نقض الدين المسيحي أو اليهودي وإبطاله، تماما كما كان ينتقض المسيح أفعال الفريسيين والصدوقيين والكتبة، وينتقد أفعال تلاميذه كذلك، وهو الأمر بالنسبة لجميع الأنبياء، لا تعني مراجعتُهم النقدية للتدين إبطالا للدين.

****

الحواشي:

*) باحث وأكاديمي من المغرب.

1- إنجيل متى، إصحاح 5، عدد 17-20.

2- سورة الشورى، 13.

3- سورة الشورى، 15.

4- إنجيل متى، إصحاح 13، عدد 24-30.

5- إنجيل متى، إصحاح 22، عدد 1-14.

6- لوقا، 15/1-7.

7- لوقا، 15/8-10.

8- لوقا، 15/11-32.

9- آل عمران، 102-105.

10- إنجيل متى، إصحاح 21، عدد 28-32.

11- إنجيل متى، إصحاح 21، عدد 33- 46، وانظر مرقس 12/1- 11.

12- سورة الأنعام 89.

13- سورة التحريم 8.

14- إنجيل لوقا، إصحاح 18، عدد 9-14.

15- إنجيل متى، إصحاح 20، عدد 1-16.

16- سورة البقرة 62.

17- سورة البقرة 113.

18- سورة البقرة 135-137.

19- إنجيل متى، إصحاح 7، عدد21-23

20- إنجيل لوقا، إصحاح 6، عدد 46- 49.

21- سورة البقرة 80-82.

22- سورة آل عمران 23-25.

23- إنجيل متى، إصحاح 8، عدد 11-12.

24- إنجيل لوقا، 16/19-31.

25- سورة المائدة 18-19.

26- مرقس 11- 17.

27- سورة البقرة 114.

28- سورة النور 36-37.

29- إنجيل متى، إصحاح 25، عدد 31-46.

30- إنجيل متى، الإصحاح 3، عدد 7-10.

31- لوقا 3/ 7-14.

32- إنجيل متى، إصحاح 7، عدد 1-5، وانظر لوقا 6/ 41-42.

33- لوقا 10/ 25-37.

34- سورة المائدة 82-84.

35- هذه الفقرة كانت من ضمن محاضرة رمضانية سنة 2009م ألقيتها في حضرة سمو الشيخ محمد بن زيد حفظه الله.

36- سورة الأنبياء آية 50.

37- سورة الأنبياء 7.

38- سورة النحل آية 44.

39- سورة الأنبياء 105.

40- سورة الكهف آية 27.

41- إنجيل متى، إصحاح 1، عدد 18.

42- إنجيل لوقا، إصحاح 1، عدد 46-49.

43- سورة آل عمران 45-47.
44- إنجيل متى، إصحاح 22، عدد 41-46.
45- إنجيل لوقا، إصحاح 39-44.
46- إنجيل يوحنا، إصحاح 7، عدد 40-43.